السودان بين فالج القوّة والعنف

الاثنين 17 أغسطس 2026 12:00 م

كتب: عمر العمر

عمر العمر

كاتب وصحافي سوداني

كما أنّ السودان الراهن خرج من رحم الماضي، فإنّ سودان الغد هو نتاجٌ يتخلّق من مخاض الحاضر. فمعسكر الحرب على الماضي، مثل معسكر الحرب على الراهن؛ كلاهما سليل تجربةٍ تنكّر لها حدّ التآمر عليها. كلاهما شريك في حرب حمقاء مدمّرة، مهدرةٍ الكرامة، مذيقة العائلات البؤس والذلّة والندامة. ما من عمل ينبت في فراغ، إذ كلّ حدث يتشكّل في بيئة جيوسياسية ومنها ينسلّ.

التاريخ يتحدّث بكلّ اللغات، قائلًا إنّ عنف السلاح وحده لا يحقّق النصر، وأنّ الحرب وحدها لا تصنع السلام. بل القوّة المعزَّزة بالإرادة تكتب الانتصار، وبالوعي تخترق الشعوب الزمن المبدّد. لو أنّ السلاح يربح الحرب، لما ظلّت إسرائيل وحِلة بين أنقاض غزّة أعوامًا على الرغم من وفرة آليات القتال الشرس. لو أنّ الحرب تحقّق السلام، لما ظلّ ترامب يترقّب قرابة عامٍ موافقةً إيرانيةً تنجيه من كوابيس الهزيمة. السودانيون، مثّل الغزّيين والإيرانيين، يدفعون فاتورةً باهظةَ الكلفة. تلك حصيلة جهل القيادات بحقائق التاريخ، وطيش الفرز بين العنف والقوّة، والسقوط في أحابيل الطموحات الضيّقة والحسابات الخاطئة. إنّها حرب الوهم.

***

هذه الحرب القذرة لم يُقدح شررها بغتةً (كما يروّج بعضهم) صراعًا على السلطة والثروة، بل هناك عناصر متباينة ظلّت تجمع حطبها طويلًا في العقل السوداني الجمعي، كالمباهاة الجوفاء. نحن أحفاد الكوشيين بناة الأهرامات وصاهري الحديد. نحن أبناء الفضاء العريض المفتوح على الجهات الأربع. نحن أبناء الحزام السوداني الممتدّ من المحيط إلى البحر. نحن قوس قزح، ومطر البشر الطالع من السهول والغاب، والنازل من الهضبة، والعابر للبحر. نحن الحضن المفتوح للرحلات المتتابعة عطشًا لمياه النيل. نحن هجين المغاربة، الأمازيغ، الشناقطة، الهوسا، الزنج، والعرب العاربة، والأمهر.

نحن الصدر الرحب، مُضيف العابرين من وإلى الديار المقدَّسة، وغير الراغبين في الرجوع من حيث أتوا. نحن المتباهون بالهُويّة غير المؤطّرة داخل سياق التاريخ والجغرافيا. نحن أبناء الوطن المفتوح لكلّ الجائلين خارج الحدود المبهمة. هذا الالتباس في الهُويّة أورثنا فرطًا في خثار الدم. فنحن بلدٌ، ثورةٌ، قططٌ؟ لا يهمّ. فكلّها تأكل أبناءها وأحفادها. ما سمعنا حكمةَ الأردني المحاسنة: "تأبى الصقور أن تأكل بنيها/ ويأبى الحرّ أن يترك أخاه."

***

توصيف هذه الحرب عبثية ليس فذلكةً لغوية. ذلك مصطلحٌ فلسفي يؤطّر قتالًا بلا دوافع محدّدة وغاياتٍ مستهدَفة. هي كذلك، تُهراقُ فيها الدماءُ وتُدمَّر البنى التحتيةُ في غياب استراتيجية مدروسة وخطط مرسومة. هي فوضى تتوغّل في الزمن من غير بلوغ نتائج ملموسة أو

مبشّرة. خراب يتراوح بين تدهور الاقتصاد وتصاعد موجات النزوح. هي هبل استمرار الفشل، ومراكمة التعقيدات، وزيادة التوتّرات، وتطاول التـدخّلات الخارجيـة. حتّى بعـد التوغّـل في الاقتتال، لم يحـدّد أيٌّ من الطرفَين على نحو مقنع للشـعب دوافع الاحتراب وأسـبابه. ليست ثمّة أهـداف تبرّر أعـداد الضـحايا وحجم الخسائر. تعـدّد الشـعارات يفضـح عبثيـة الحرب، وتعـدّد جبهات القتال وجهاتها يعرّي غياب الاستراتيجية والخطط. ... إنّها حرب عبثية، إذ إنّها حرب الارتجال، والمعارك فيها ردّات فعل مفتوحة على أمثالها.

***

هذه حرب عارية من أيّ غطاء شـرعي، فأطرافها انتهكت الشـرعية واغتصبت السلطة. ثمّ فتحت فوّهات القهر والنار على اليتامى والأرامل والشـيوخ الرُّكّع في البيوت الآمنة وفي المساجد، والشباب الرُّتَّع في المعاهد والمقاهي، وأسراب الفقراء والشحّاذين الجائلين في الأسواق. صار النزوح ضريبةً واجبةَ السداد حينما أمسى هو الخيار الوحيد بين الموت والقهر. فكيف تكلمني عن حرب الكرامة؟ تلك فرية بلهاء.

نازحون كثيرون عبروا فوق أشـلاء الجثث في الأزقـة الضـيّقة والطرقات الواسـعة وبين ركام الأبنية العتيقة. هذه حربٍ قذرة، كما تتأجّج من دون دافع ليس عليهـا من وازع. إنّها انفجار الفساد المتراكم داخل مؤسّسات الدولـة، واستشـراء النذالـة (عمـدًا) بـديلًا من موازين العـدالة ثلاثين عامًا أو يزيـد. إنّها انفجار عنف نخبـة الأقلّيـة والطفيليـة الشـرس الممارس ضـدّ كلّ فئات الشـعب. فعن أيّ كرامة تتحدّث؟ تلك فرية باطلة. هم أنفسهم القتلة الفجرة، ظلّوا يجنون أرباحًا طائلةً حرامًا من المصالح العليا والدنيا، ومن عرق الضحايا، ويمارسون النهب الممنهج والتقتيل والإبادة. فمن أين لك هذه الجرأة الوقحة كلّها للتلويح بشعار حرب الكرامة؟

***

هـذه حرب تناسل شـررُها حينما التزمت غالبية النُّخب الحياد، بينما كان يجري ترويج الدين واللاهوت سـلعةً ثقافيةً للعامّة. حينما انتزعت ثلّة من ذوي العمائم دور أنصاف الآلهـة وحقوق الوصايـة على الشـعب. هـذه حرب قـدح زنـدها عنـدما اختارت حِفنةٌ من الجنرالات خيانة حركة الجماهير والمبادرة بالانحياز (للمرّة الأولى) إلى الثورة المضادّة. نعم، كان هناك ضبّاط انقلابيون على وقع حركة الجماهير، وضبّاط انقلابيون ضـدّ الانقلابيين المبادرين. لكنّ هـذه الحفنـة مسؤولـة أمام الجماهير والتاريـخ عن تنصـيب الجيش قوةً باطشـةً ضـدّ الشـعب، بعد تكريسـه مؤسّـسةً اقتصاديـةً ناهبـةً لموارد الثروة وبؤرةً للامتيازات والفساد. ثمّ بعـد تصويره متقاعسًا حـدّ العجز عن الوفاء بالحدّ الأدنى من واجباته تجاه حمايـة نظامه العسـكري الأيـديولوجي. يا للفضـيحة مكان الكرامـة! فـذلك تنصّلٌ ألجأه إلى تفريخ المليشـيات، بغضّ النظر عنها أحيانًا، والتحريض عليها أوقاتًا، بدأت دمامل العنف تبرز في خريطة الوطن.

بعض الجنرالات تورّطوا في تغـذيتها عمـدًا وتدبيرًا. هكذا أخذنا نُصدّر عمليات التشـريد والتجويع والإفقار الممنهجة، ثمّ التقتيل، في شاشات العالم البلورية مباشرةً بإيقاع يومي.

***

تحت هـذا التقـاعس والتورّط معًا، لم تسـتطع شـبه الدولـة حجب تلك الصور عن العالم، لكنّها ظلّت حريصـةً على أن تُبنى الأخبار فيها على المجهول. تلـك العلّـة نفسُـها فتحت أوّل كُوّات التـدخّل الخـارجي على مسـرح الجريمـة اللاأخلاقيـة والسياسـية. هكـذا انقلب السـحر على الساحر، إذ تقاطعت الطموحات مع المصالـح، فثقُلت وطأة التواطؤ ضـدّ شـبه الدولـة المركزية، وضدّ التاريخ، وضدّ الجغرافيا. هذه الصورة المشوّشـة غابت حتّى على أنظار أنصاف الساسـة في حكومة ثورة ديسـمبر (2018) إلى حـدٍّ جعلهم يتّخذون من المليشـيات حلفاءً بالتبنّي وبالتفاوض، مع أن الثوّار تبنّوا شعارات المليشيات السياسية والإنسانية.

بعـد فوات الأوان، اكتشف أنصاف الساسـة، كما أنصاف الآلهـة من قبل، أن ما توهّموه نهايةَ الأزمة (ويا للسـخرية!) ليس سوى مسار مغاير لأزمـة أشـدّ وطأة وأكثر تعقيـدًا. لم يدرك هؤلاء حتمية إعمال القوّة شـرطًا لازمًا لإخماد العنف. في ظلّ فقدان نفاذ الرؤى، والشـعور بعجز الإرادة، والخوف من المواجهة، استفحل المستنقع القديم حتّى ابتلع الجميع.

لم يدرك هؤلاء وأولئك الفارق بين إعمال القوّة واستخدام العنف. ما عاد ممكنًا تمديد ماراثون الشعب على دروب العذاب في انتظار تحقيق بطولات زائفة مشرّبة بالدماء، أو رهان خاسر على طوق إنقاذ يحفظ ما تبقّى من الدولة، والوطن، والكرامة المهدرة. علّه يأتي من الخارج.

تقارير

خصم 50% على مونوريل شرق النيل يكشف أزمة التسعير وضعف إقبال محدودي الدخل
الجمعة 22 مايو 2026 06:30 م

تقارير

استغاثة عاجلة لإنقاذ حياة الدكتورة شيرين شوقي المعتقلة بسجن العاشر من رمضان
الأربعاء 15 أبريل 2026 11:00 م

مقالات متعلقة

ةيكريملأا ةيداصتقلاا تابوقعلا طوسو "ميعزلا" بمارت

ترامب "الزعيم" وسوط العقوبات الاقتصادية الأميركية

نيسيئرو نيقافتا نيب يناريلإا يوونلا جمانربلا ام ..ذيلا ريّغت؟

البرنامج النووي الإيراني بين اتفاقين ورئيسين.. ما الذي تغيّر؟

ةيكريملأا ةبوربعلا مذه

هذه العروبة الأميركية

دقنلا قودنص ةهجاوم يف رصم ةحلسأ

أسلحة مصر في مواجهة صندوق النقد

- التكنولوجيا
- دعوة
- التنمية البشرية
- الأسرة
- ميديا

- الآخبار
- المقالات
- تقارير
- الرياضة
- تراث
- حقوق وحريات

إشترك ادخل بريدك الإلكتروني

جميع الحقوق محفوظة لموقع نافذة مصر 2026 ©